

تأثير السكنات العشوائية على الفضاء الحضري

إعداد الدكتور / خالد عبد الحميد قيطوني

معهد الهندسة المعمارية وال عمران
جامعة البليدة – سعد دحلب / الجزائر

Email: gaitoni72@yahoo.com

المستخلص

تعتبر ظاهرة السكنات العشوائية من الظواهر التي أصبحت متلاصقة بحدة بأغلب المدن الكبرى ومنتشرة فيها، سواء على المستوى العالمي أو العربي، وتعدد أسبابها وتتداخل بناء على خصوصية كل مدينة، ونمط العيش فيها، إضافة إلى الظروف السائدة في البلد والمجتمع ككل. وما هو ملاحظ نتيجة للعديد من الدراسات والأبحاث الأكاديمية المتخصصة في هذا المجال، أن التأثير السلبي لهذه السكنات العشوائية لا يقتصر على المقيمين فيها فقط، بل يتجاوز ذلك ويتعداه إلى التركيبة الاجتماعية، الثقافية، الأمنية... وغيرها للفضاء الحضري والمجتمع بصفة عامة.

انطلاقاً مما سبق، يسعى هذا البحث إلى تقديم رؤية مختصرة عن ماهية السكنات العشوائية، ومميزاتها، بهدف الانتقال بعد ذلك إلى عرض موجز واستطلاعي انطلاقاً من الدراسات في هذا المجال لتأثيرات هذه السكنات أو الأحياء على الفاعلين الاجتماعيين المنتمين إليها من جهة، والمدينة من جهة أخرى بصفة أكثر شمولية.

الكلمات المفتاحية: السكنات العشوائية، المدينة، الفضاء الحضري، الجريمة، الانحراف.

The effect of random housing on urban space

By: Khaled Qaitoni

University of Blida / Algeria

Abstract:

The phenomenon of indiscriminate housing is one of the phenomena that have become sharply contiguous to most major cities and spread in them, both globally and Arably, and the multiple causes and overlap based on the specificity of each city, and lifestyle, in addition to the conditions prevailing in the country and society as a whole. What is noticeable as a result of many studies and academic research specialized in this area, that the negative impact of these informal settlements not only residents, but beyond that and beyond it to the social, cultural, security ... and others to urban space and society in general.

Based on the foregoing, this research seeks to provide a brief view on the nature of informal settlements and their advantages, with the aim of moving to a brief and exploratory presentation based on studies in this area of the effects of these houses or neighborhoods on the social actors belonging to it on the one hand, and the city on the other hand. More comprehensive.

Keywords:

Random housing, city, urban space, crime, deviation.

المقدمة

تعتبر العلاقة بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها بصفة عامة، والسكن بصفة خاصة من أبرز الصلات التي طبعت التاريخ البشري منذ القدم. إذ أن هناك علاقة تبادلية أشارت إليها العديد من الدراسات البحثية المتخصصة سواء في الأنتروبولوجيا، التاريخ والآثار، علم الاجتماع، الهندسة المعمارية وغيرها.

حيث أن الفاعلين الاجتماعيين قد سعوا إلى ترجمة ثقافتهم من خلال السكنات التي كانوا يقيمون بها، ومن هنا فهي تعتبر ناتجا حضاريا لتمثلاتهم وثقافتهم، وفي نفس الوقت تدخل في تأطير جزء من ذواتهم وإعادة تشكيل الأنساق التي يعيشون ضمنها وفي إطارها.

ومن هذا المنطلق يمكن القول بناء على هذه الدراسات أن السكنات تتأثر بالإنسان وتؤثر فيه أيضا وفق ميكانيزمات متداخلة فيما بينها بدرجة كبيرة، ويصعب بدرجة كبيرة دراسة أحد هذين المفهومين أو المتغيرين بمعزل عن الآخر. وتهتم الدراسات المتخصصة في المدينة والفضاءات الحضرية بصفة أكثر دقة بالاشتغال حول موضوعات السكنات والأحياء، وكيفية تأثيرها وتأثرها بالمجتمع، ومن خلال الاطلاع عليها نلاحظ أنها تقوم بالتطرق لمختلف جوانب الحياة الاجتماعية في المدينة، كما أنها تهتم بدراسة السكنات العشوائية الموجودة بصفة عامة في ضواحي المدينة، وكيفية تأثير هذه المناطق على المجتمع، وعلى الفاعلين الاجتماعيين المنتمين إليها.

ويرجع الباحثون أسباب ظهور هذه السكنات العشوائية إلى العديد من العوامل، ومن أبرزها: الهجرة الداخلية أو ما يعرف بالنزوح الداخلي إلى المدن الكبرى والمناطق الصناعية بهدف تحسين المستوى الاقتصادي والحياتي للفاعلين الاجتماعيين، والذين ينتقلون إلى الفضاءات الحضرية الكبرى بدون أن تتواجد لديهم القدرة المالية على السكن في أحيائها النظامية المخطط لها من طرف الجهات المعنية والمخولة بذلك.

وهم في نفس الوقت يختلفون حول تسميتها، حيث أنهم يستعملون مجموعة من المفاهيم، والتي تعبر عن نفس الوضعية السكنية بالرغم من اختلاف التسميات، ومن بينها: السكنات الهشة، السكنات غير اللائقة، السكنات غير الصحية، السكنات الفوضوية، السكنات العشوائية.... وغيرها.

ويمكن أن تتواجد هذه السكنات من الناحية الوصفية في الغالب حسب المتخصصين في المجال على شكلين أو نمطين أساسيين، يتمثلان في: السكن العفوي الهش، ويطلق عليه اسم البناء القصديري، وهو سكن يبني بمواد بسيطة، كبقايا الخشب، صفائح من حديد، الزانقل... وغيرها. أما النوع الثاني فيتمثل في: السكن العفوي الصلب، حيث يتم بناء هذا النوع من السكن بمواد ملائمة وبالأحرى لائقة من الجانب الفيزيائي، فهي مشابهة ومطابقة نوعا ما للبنىات القانونية، لكن تبقى عشوائية لانعدام المرافق الأساسية. (مزهود، الصادق. ١٩٩٥: ٦٥-٦٦)

أما من ناحية الخصائص، فإنه من الملاحظ أن هذه السكنات أيا كانت التسمية المعبرة عنها، تشترك في مجموعة من السمات التي ذكرها FRIEDMAN والمتمثلة في كونها: عبارة عن تجمع سكاني جديد حسب وصول النازحين الجدد

إلى المدينة، والذين يأملون أن يجدوا فيها وسائل بقائهم، حيث يقومون ببناء مساكنهم بأنفسهم، وبدون وسائل (FRIEDMAN, Y.1978 :15).

ومن هنا يظهر لنا التركيز على النازحين الجدد إلى الفضاءات الحضرية والمدن الكبرى، والذين يسعون إلى التأقلم مع المجال الجديد بناء على إمكانياتهم المادية المحدودة، من خلال بناء مجموعة من السكنات بأنفسهم، والتي غالباً ما تتعدم فيها الشروط الضرورية للسكن اللائق، بحكم أنها فوضوية وعشوائية أساساً في تشييدها، ولا تخضع لمعايير السكنات المخطط لها في المدن.

انطلاقاً مما سبق ذكره حول العلاقة المتبادلة بين المجال السكني والإنسان، إضافة إلى عدم توفر الشروط الحياتية القاعدية في السكنات العشوائية، تظهر شرعية الخوض في غمار البحث في مسألة تأثير هذه النوعية من السكنات في الفاعلين الاجتماعيين القاطنين بها والمنتمين إليها بصفة خاصة، وفي المجال المدني الحضري بصفة عامة، في ظل العيش في بيئة وشروط اجتماعية يمكن القول أنها صعبة التحمل، ولكنها بالرغم من ذلك تمثل مجال الواقع اليومي المعيش لفئة كبيرة من الساكنة.

مشكلة البحث :

تأثير السكنات العشوائية أو السكنات الفوضوية الهشة على الفاعلين الاجتماعيين سواء المنتمين إليها أو الذين تحيط بهم من ساكنة المجال الحضري

خطة البحث :

- مقدمة وإشكالية البحث.
- المفاهيم الأساسية في الموضوع.
- تأثير السكنات العشوائية على ساكنتها.
- تأثير السكنات العشوائية على الفضاء الحضري الكلي.
- نتائج البحث.
- خاتمة.

أهمية البحث :

ترجع أهمية البحث إلى أنه خصص لدراسة تأثير دراسة ظاهرة السكنات العشوائية وانتشارها في المدن الكبيرة وأسباب انتشارها . والنتائج المترتبة على المنظر الحضري للمدن على المستوى العالمي والعربي ودراسة الآثار المترتبة على الصعيد الصحي والبيئي والترابي والتعليمي . وتشويه السكنات العشوائية لمورفولوجية المدن وشكلها الجمالي

أهداف البحث :

- التعرف على ظاهرة انتشار السكنات العشوائية وأسبابها
- معرفة الآثار المترتبة للسكنات العشوائية على الفضاء الحضري
- آثار السكنات العشوائية على سكينها على الصعيد الصحي والبيئي والتربوي والتعليمي
- كيف تساهم السكنات العشوائية في تشويه مورفولوجية المدن وشكلها الجمالي .

منهج البحث

لقد اعتمد البحث على استخدام المنهج الوصفي التحليلي.

٢- المفاهيم الأساسية:

٢-١- السكنات العشوائية:

يعتبر مفهوم السكنات العشوائية بالرغم من تعدد التسميات المرتبطة به كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقا من أبرز المفاهيم التي شغلت الباحثين المهتمين بالمجال الحضري وتغير مورفولوجيته، وتأثير هذا التغير على الثقافة والقيم. وقد ارتبط هذا المفهوم ارتباطا وثيقا بالنمو الهائل للمدن والمناطق الحضرية الحديثة،

وما كان لذلك من تأثير هائل لا على عادات الناس وأنماط سلوكهم فحسب، بل على أنماط التفكير والقيم. ومن اللافت للنظر أن الانتشار الهائل للمدن ارتبط لدى الكثير من الباحثين الاجتماعيين بمظاهر التفاوت واللامساواة الاجتماعية وشيوع الفقر والانحراف والجريمة. ولم يكن من المستغرب أن تنشأ أوائل الدراسات والنظريات السوسولوجية حول المدن الحديثة في مدينة شيكاغو الأمريكية التي كانت في الثلاثينات من القرن التاسع عشر منطقة مهجورة لا توجد حياة فيها، وتحولت بحلول عام ١٩٠٠ إلى مدينة صناعية، ومركز مالي ضخم (غدنز، أنتوني. ٢٠٠٥: ٥٩٧-٥٩٨) ومن هنا انطلقت الدراسات الأكاديمية الجادة لأبرز مشاكل المدن الحديثة، وفي مقدمتها مسألة السكنات العشوائية.

يرى ROCHEFORT أن السكنات العشوائية هي عبارة عن: مساكن صغيرة هشة، وتكون غالبا غير كاملة البناء، وهي مبنية من الطوب والأجر من طرف الفاعلين الاجتماعيين في حد ذاتهم دون الاستعانة بمتخصصين، باستعمال معدات بسيطة جدا، وشوارعها تفتقد التصميم وتغيب عنها الأرصفة والطرق المعبدة، وتغرق في الأوحال أثناء تساقط الأمطار. (ROCHEFORT, M. 1988)

يرى فاروق بن عطية أنّ تسمية الحي الفوضوي هي أكثر تسمية تليق على السكنات العشوائية، والذي يعرفه على أنه: ذلك الحي المعزول في ضواحي المدن الكبرى، أقيم فوق أرضية اختيرت خصيصا على أساس التخفي وعدم الظهور إضافية إلى السرية وليس على أساس امتيازاتها العمرانية، وهو يتشكل من سكنات هشة أو "برارك" تم بناؤها من لوائح خشبية، صفائح حديدية، يميز هذه السكنات حرمانها من المياه الصالحة للشرب والكهرباء وغاز المدينة والصرف الصحي،

والطرق المعبدة، وأنها لا تتواجد في دائرة التسيير أو اهتمامات الجماعات المحلية الممثلة للسلطات المعنية. (BENATIA, Farouk. 1980 :77)

وبناء على هذا التعريف تتوضح لنا بصفة جلية الخصائص الأساسية والمشاركة للسكان العشوائية، والمتمحورة أساسا حول افتقار هذه السكنات لأدنى شروط الحياة، إضافة إلى ذكره لسمة وجودية هامة تؤثر تأثيرا مباشرا وملحوظا على القيم الاجتماعية والثقافية للفاعلين الاجتماعيين المنتميين لهذه المناطق، والمتمثلة في عدم اهتمامات السلطات المعنية أساسا بالسكنات العشوائية وساكنتها، وما ينتج عن لامرئية وتخفي هذه السكنات والمقيمين فيها من تأثيرات على الأفراد والمجتمع ككل.

من ناحية أخرى، يذكر جاد محمود أن السكنات العشوائية هي: مناطق داخل المدن الكبرى وأحيانا بأطرافها، تتميز بانحطاط مستوى النازحين من الناحية الطبيعية، وتتميز هذه الأحياء بالشوارع الضيقة غير المخططة وغير المهيأة والمنازل القديمة القابلة للسقوط، وتكثف بعدد يفوق طاقتها من السكان، ولا تتمتع حتى بقسط ضئيل من الوسائل الحديثة. (جاد، محمود. ١٩٩٣ :٢٦)

كما يعرف عبد القادر القصير السكنات أو الأحياء العشوائية على أنها: عبارة عن تجمعات سكنية نمت وتوسعت بوضع اليد على أراضي الغير في داخل المدن وغالبا أطرافها، وهي تبدو وبشكل كل متراسة من الأكواخ أو المساكن المؤقتة المبنية من المهملات على أراضي خالية من الخدمات كالماء، الكهرباء والمجاري المائية كما تفتقر إلى الخدمات الاجتماعية والصحية وتسكنها أفقر الطبقات الاجتماعية. (القصير، عبد القادر. ١٩٩٣ :٠٩)

أما Pierre George فيرى أن السكن العشوائي قد استعمله الكثير من الباحثين لتمييز السكن الفوضوي الذي وجد نتيجة تكديس السكان في المدن الكبرى التابعة للبلدان الأقل نمواً، هؤلاء السكان ليست لديهم موارد رزق جاؤوا من الضواحي واحتلوا مجالا لا يستهان به من المدينة وغالبا ما يكون هذا المجال عبارة عن مناطق معرضة للفيضانات أو أنها عبارة عن منحدرات. وقد بنيت هذه المباني بمواد تحصلوا عليها مجانا من أماكن القمامة أو الموائى وأماكن التخزين، وهي عبارة عن صفائح من القصدير أو القش، وتفتقر تماما إلى أبسط الشروط الصحية كما تعكس صورة حقيقية عن فقر المساكن الريفية التي جاؤوا منها. (مزهود، الصادق. ١٩٩٥ :٦٢-٦٣)

وأخيرا يذكر GRANOTIER في معرض أبحاثه ودراساته للسكنات والأحياء العشوائية أنها: تحيط بالمدن والحوضر الكبرى وعلى هوامشها، وتتميز بارتباطها بما يعرف بالأحياء الساخنة، حيث أنه في أحزمة الفقر المحاطة بالمدن الكبرى يعيش حسبه الملايين من الفاعلين الاجتماعيين في ظروف جد قاسية، تتمركز كل تطلعاتهم في تأمين قوت يومي لأبنائهم، وحمايتهم من المطاردة اليومية لهم من طرف رجال الشرطة. (GRANOTIER, M. 1980)

٢-٢- المدينة أو الفضاء الحضري:

يعد مفهوم المدينة من المفاهيم الأساسية في التخصصات المهمة بدراسة الفضاء الحضري، وفي مقدمتها علم الاجتماع الحضري، والأنثروبولوجيا الحضرية،

فهي تمثل حسب دراسات الباحث الشهير في مدرسة شيكاغو لويس ويرث نمطا من أنماط التباين السكاني. وأن نموها من يمكن النظر إليه كعملية تاريخية مستمرة فهي مكان إقامة دائمة للسكان المتباينين، وهناك ثلاث متغيرات تحدد طابع المدينة، أولها: أعداد السكان، وثانيها: كثافة الإقامة، وثالثها: التباين السكاني وحياء الجماعة. وهي أيضا مكان للإقامة تتميز بالكبر والكثافة ويسكنه أفراد غير متجانسين. (عاطف، محمد. ١٩٨٣: ١٢)

من خلال هذه الرؤية يمكن ملاحظة تركيز الباحث على المزيج غير المتجانس من التركيبة السكانية وكثافته في المدينة، وهو ما يميزها بدرجة كبيرة عما سواها، إضافة إلى تأثير هذا اللاتجانس في الثقافة، نمط المعيشة، الممارسات، طرق التفكير... وغيرها على الحياة المشتركة للأفراد فيها، وإنتاج قيم لديهم تتمايز وتختلف تمام الاختلاف عن تلك المتواجدة في الأرياف والتجمعات السكنية قليلة الكثافة السكانية.

كما تعتبر المدينة مظهرا عمرانيا مألوفا يمكن تمييزها عن القرية بوضوح سواء في مورفولوجيتها أو في وظائفها أو حتى نموها وتطورها التاريخي وهي تتميز بأنها مركز للتركز السكاني والعمل والترفيه. (حلواني، أحمد. ١٣٢)

ونلاحظ من خلال هذا التعريف أن الباحث يركز على مجموعة من السمات التفرقية التي تميز المدينة على القرية، سواء من الناحية العمرانية المورفولوجية المتعلقة بشكل البناءات وحجم استيعابها البشري للسكنة، إضافة إلى التمايز والاختلاف عنها في الوظائف والنمو. كما ركز على أن المدينة مقارنة بالقرية تعتبر مركزا للكثافة السكانية المرتفعة، وتوفير كل من مناصب الشغل والعمل إضافة إلى الترفيه الذي لا توفره القرية.

وتعرف المدينة أيضا على اعتبار أنها عبارة عن تصميمات مبنية على تشكيلات رياضية، هندسية، فلسفية، إيديولوجية ورمزية. وهي تعبر عن تطور الفن المعماري الذي حاول على مر العصور إبراز الجماليات التي تجذب الناس والمهابة التي تعبر عن السلطة وقوة الحكام. (بوجمعة، خلف الله. ٢٠٠٥: ٦٧)

انطلاقا من هذه الرؤية، نجد أن الباحث يربط بصورة كبيرة بين العلاقة بين السلطة والقوة وتجسيدها من خلال البناءات المعمارية المعبرة عنها، على اعتبار أن هذه البناءات الموجودة في المدينة والمكونة لنسيجها المعماري تعبر بالأساس عن ثقافة معينة، مجسمة في شكل مجموعة من الأشكال الهندسية والإيديولوجية والرمزية المعبرة عن المدينة.

كما أن هناك مجموعة من الدراسات التي تربط المدينة بالتقدم، على أساس أن التحضر يمثل جانبا من البيئة المستحدثة التي نشأت عن انتشار الرأسمالية الصناعية. ولكن على اعتبار أن المدينة تجمع بين ساكنين غير متجانسين من مختلف النواحي وفي مقدمتها الجانب الاقتصادي، فقد ظهر فيها ما يسمى بالمركز والهامش. حيث أصبح مفهوم مركز المدينة أو قاع المدينة من المحاور الرئيسية التي تستأثر باهتمام العلماء الاجتماعيين في الأونة الأخيرة. ومن جملة القضايا والمشكلات التي تستحوذ على اهتمامات الباحثين والمحللين في المراكز السكنية القديمة أو العشوائية في أكثر المدن الكبرى، تبرز المسائل المتصلة بالانحراف، البطالة، التشرد، الجريمة والإدمان على المخدرات والمتاجرة بها، التعصب العرقي والإثني، الإقصاء الاجتماعي، تردي الخدمات العامة والمدارس، والتوتر بين المواطنين والقوى المكلفة بتطبيق القانون وحفظ النظام. (غدنز، أنتوني. ٢٠٠٥: ٦٠٢)

وحسب رؤية الباحث في علم الاجتماع الحضري مانويل كاستلز (غدنز، أنتوني. ٢٠٠٥)، نجد أن المدن في القرن الحادي والعشرين لا تتميز بحجمها السكاني أو الجغرافي فحسب، بل بدورها باعتبارها نقاط التقاء رئيسية بين التجمعات البشرية الهائلة من ناحية والاقتصاد المعولم من ناحية ثانية. وستكون هذه المدن بمنزلة جيوب من النشاط والفعالية والنفوذ تتدفق فيها ومنها مؤثرات السياسة، ووسائل الإعلام والاتصالات، والمال والإنتاج. وستكون (...) أشبه بقطع مغناطيسية تتجذب إليها المناطق المحيطة بها. وينجذب الناس إلى المراكز الحضرية الكبيرة لأسباب عديدة. فهي ستكون قبلة للقوى التي تنجح في الانضمام إلى نظام الاقتصاد العالمي والانتفاع منه، وكذلك للجماعات التي لا تحقق مثل هذا النجاح. كما أن هذه المدن، التي ستمثل أطراف الاقتصاد المعولم، ستستقطب شرائح عديدة هائلة من الناس الذين يكافحون لمجرد البقاء والاستمرار.

واعتمادا على ما سبق تنتج الهجرة الداخلية من المناطق الريفية إلى المراكز الحضرية إما بسبب تفهقر الزراعة التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم أو لأن المدينة توفر لهم مجالات واسعة من فرص العمل. ويدفع الفقر وشح الفرص أعدادا هائلة من أهل الريف والقرى إلى إغراءات المدينة. وقد يفكر جانب من هؤلاء المهاجرين بالبقاء في المدينة نسبة قصيرة نسبيا يعودون بعدها إلى قراهم بعد أن يكسبوا بعض المال، وقد تعود فئة قليلة منهم إلى الريف بالفعل، غير أن الأغلبية الغالبة منهم تضطر إلى البقاء في المدينة، إما لأنهم أفلحوا في تحقيق ما هاجروا من أجله، أو لأنهم فقدوا لسبب أو لآخر علاقاتهم وأدوارهم ومواقعهم في مجتمعاتهم المحلية السابقة في مجتمع الريف. (غدنز، أنتوني. ٢٠٠٥: ٦٠٤-٦٠٥)

ويضطر العديد منهم بسبب نقص مواردهم المالية إلى تشييد سكنات عشوائية بهدف الحفاظ على وجودهم واستمرارهم، وهو ما يؤثر بطريقة مباشرة على النسيج الحضري للمدينة، سواء من الناحية الشكلية المورفولوجية، أو من ناحية القيم الثقافية والممارسات اليومية في الواقع المعيش.

٣- تأثير السكنات العشوائية على ساكنتها:

تميز الواقع الراهن لمناطق السكن العشوائي الذي شمل معظم المدن الكبرى في الوطن العربي بصفة خاصة بمجموعة من الخصائص، ويمكن تصنيف تلك المدن في مجموعتين رئيسيتين: (الريداوي، قاسم. ٢٠١٢: ٤٦٠-٤٦١)

- مجموعة ذات نمو سكاني عشوائي كبير وواسع في المساحة وعدد السكان، وتمثل ذلك بالزحف العمراني باتجاه الأراضي الزراعية المروية حول المدن، أو الأراضي الزراعية البعلية غير المروية، وأحيانا أراض جرداء، وهذه المدن هي: القاهرة، دمشق، عمان، الخرطوم، بيروت، طرابلس، تونس، الجزائر، الدار البيضاء، نواكشوط، صنعاء وبغداد. حيث توسعت هذه المدن توسعا كبيرا عشوائيا، وتبلغ نسبة السكان الذين يقطنون في مناطق السكن العشوائي بين ٤٠ - ٦٠% من مجموع سكان تلك العواصم، وشكل ذلك مدنا كبرى، حيث التصقت حدود المدينة الإدارية بتلك المناطق العشوائية.
- مجموعة مدن ينخفض فيها عدد السكان الذين يقطنون في مناطق السكن العشوائي وترتفع فيها نسبة التحضر، بسبب نشوء تلك المدن بعد اكتشاف النفط واستثماره، وتتميز بتخطيطها عمرانيا، وهي مدن: الرياض، أبو ظبي، مسقط، الكويت، الدوحة، البحرين وتصل النسبة فيها أحيانا بين ٢٥ - ٣٥% (مناطق مخالقات سكنية).

من خلال ما سبق ذكره، نلاحظ أن جميع المدن العربية الكبرى تعاني من مشكلة السكنات العشوائية بدرجات ونسب متفاوتة وهذا راجع للعديد من الأسباب، تتقدمها العوامل الاقتصادية، الهجرة الداخلية، إضافة إلى عوامل تختلف من مدينة لأخرى.

ولكن ما يمكن الإجماع عليه استنادا على جملة التعاريف الخاصة بالسكنات العشوائية، والتي سبق لنا عرضها، استنتاج مجموعة من التأثيرات القابلة للملاحظة والتقصي العلمي الميداني. حيث أن الانتماء إلى الأحياء العشوائية والإقامة في مساكنها غير اللائقة بالحياة الاجتماعية ينتج عنه مجموعة من التأثيرات السلبية على العديد من الأصعدة، والتي نذكر منها ما يلي:

• على الصعيد الصحي والبيئي:

يقطن ما يقدر بثلاث سكان مدن العالم النامي في أحياء فقيرة مزدحمة وهم يعانون الاكتظاظ الشديد والسكن دون المعيارى والإمكانات الهزيلة للحصول على الماء والصرف الصحي المأمونين، مما يؤدي إلى نسب عالية من الأمراض ووفيات الرضع. يوحى النمو المديني المتسارع بأن مشكلات القاطنين في الأحياء الفقيرة سوف تزداد سوءا في المدن المعرضة أصلا للضرر. (غدنز، أنتوني. ٢٠٠٥: ٥٩٨)

وبما أن السكنات العشوائية لا تحتوي على أبسط الشروط الصحية اللازمة للحياة الاجتماعية الكريمة، من مراكز الصحة، المياه الصالحة للشرب، قنوات الصرف الصحي... وغيرها فإن انتشار الأمراض والأوبئة فيها يكون أكثر من غيرها من المناطق السكنية الأخرى.

إضافة إلى أن التكديس البشري الكبير فيها والاكتظاظ الذي تعرفه بالرغم من انعدام شروط البيئة الصحية السليمة، يساهم من ناحيته في زيادة درجات العدوى وانتشار الأمراض، التي من الصعب التحكم فيها والحد منها، بسبب انعدام شروط الصحة من ناحية، وعدم وجود مراكز صحية جوارية تساعد الفاعلين الاجتماعيين الساكنين في المنطقة على تفادي مثل هذه الأمراض.

• على الصعيد التربوي والتعليمي:

تعتبر عملية التربية أو التنشئة الأسرية الأولية من أهم العمليات التي تقوم بها الأسرة، والتي يتعلم بها الأطفال المعايير الثقافية للمجتمع الذي يولدون وينشأون فيه. وحيث أن هذه العملية تجري خلال السنين الأولى من حياة الفرد، فإن العائلة تمثل الساحة الرئيسية التي تتم فيها تنمية الشخصية البشرية. (غدنز، أ. ٢٠٠٥: ٢٥٩)

لكن ما هو ملاحظ في السكنات العشوائية بناء على الدراسات المتخصصة، أن الأسرة لا تمتلك الوقت الكافي من أجل تولي مهمة رعاية أبنائها والحرص على تربيتهم تربية سليمة، نظرا للانشغال المستمر بالعامل الاقتصادي، من أجل الحفاظ على استمرارية وحياة الأفراد المنتمين إليها، ولو بتوفير أدنى المتطلبات المتعلقة بذلك. وهو ما ينعكس سلبا على الجانب التربوي للأبناء، والذين يلعب الشارع العشوائي دورا أساسيا في تكوينهم وتنشئتهم.

كما أن انتماء هؤلاء الصغار إلى تجمعات عشوائية تعد من المناطق السكنية الحارة والملئية بالأفات الاجتماعية والجريمة، يؤثر بطريقة مباشرة في شخصيتهم، استعداداتهم، أفكارهم، وممارساتهم. حيث أن مثل تلك الممارسات الخارجة عن إطار المقبول والمرغوب فيه اجتماعيا في المجتمع الكلي، تصبح بالنسبة إليهم بناء على المعايضة المستمرة لها، شيئا من المقبول والمتعارف عليه، وهو ما يؤثر عليهم سواء داخل التجمعات السكنية العشوائية، أو خارجها، وبالأخص أثناء تفاعلاتهم الاجتماعية مع أطفال ينتمون إلى مناطق مغايرة أثناء الالتحاق بالتعليم في مرحلة عمرية معينة.

وبما أن هذه التجمعات العشوائية لا تتوفر في الغالب على المؤسسات التربوية المتواجدة في غيرها من المناطق الحضرية، فإن الأطفال ينتقلون إلى مدارس متواجدة في تجمعات قانونية محاذية، ويمثل هذا الانتقال خطوة أولية في الخروج من الحياة المعاشية التي ينتمي إليها الطفل، إلى عالم المدينة المتميز باللاتجانس كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهنا يبدأ بملاحظة الفجوة الكبيرة والهوة الواسعة بين واقعة اليومي المعيش من ناحية، وبين الواقع التعليمي الجديد من ناحية أخرى، إضافة إلى أنه يبدأ اكتساب قيم ومعايير جديدة يمكن أن تكون متميزة عن المعايير التي تربي عليها في السكنات العشوائية.

• على الصعيد الاقتصادي:

من خلال تناول ومعالجة الموضوع، يمكن الاستنتاج بناء على ذلك أن الوضعية الاقتصادية لسكان التجمعات العشوائية من الأساس متدنية جدا، حيث أنهم جميعا يعيشون تحت خط الفقر، وتؤثر وضعيتهم الاقتصادية الصعبة هذه على جميع نواحي الحياة الاجتماعية. إذ أن شغلهم الشاغل، وهم الوحيد هو الصراع من أجل البقاء والمحافظة على حياتهم وحيات أبنائهم.

ونتيجة لوضعيتهم المادية المتردية يضطر الكثير منهم إلى الدخول في عالم الجريمة والانحراف، حيث تزداد معدلات الجريمة بصفة كبيرة في السكنات والمناطق العشوائية (الخراشة، عاطف، علي. ٢٠١٠: ١٤٢) مقارنة بغيرها من أحياء الفضاء الحضري المخططة والقانونية، وذلك لعدة عوامل من أبرزها الجانب الاقتصادي، إضافة إلى درجة الاحتقان الكبيرة الموجودة فيها.

والملاحظ بناء على نتائج العديد من الدراسات المتخصصة في المجال، انتشار النشاطات الاقتصادية غير القانونية في المناطق العشوائية والهامشية، وبدرجة كبيرة ما يرتبط بالمخدرات، إذ يعتبر تعاطيها وبيعها أو المتاجرة بها نشاطات متعارف عليها وشبه مقبولة في هذه الأماكن. لكن ذلك التأثير السلبي لم يقف على ساكنة المناطق العشوائية فقط، بل تجاوزه للأحياء والمناطق المحاذية لها، مما أصبح يؤثر بطريقة مباشرة على الفضاء الحضري خاصة، والمجتمع الكلي بصفة عامة، وهو ما سيتم التطرق له في المبحث القادم.

• على الصعيد الاجتماعي:

يمكن القول انطلاقاً من المؤشرات السابقة، أن هذه التأثيرات تصب كلها بالسلب على البعد الاجتماعي لسكانة المناطق العشوائية، حيث أنهم نتيجة للوصم، وللوضع الواقعية الصعبة التي يعايشونها يومياً وباستمرار، تصبح لديهم في الكثير من الأحيان مشاكل ملحوظة على مستوى التفاعل الاجتماعي مع بقية الفئات المنتمة إلى المدينة من خارج المناطق العشوائية.

٤- تأثير السكنات العشوائية على الفضاء الحضري الكلي:

يرتبط تقسيم المجال الحضري بدرجة كبيرة بمستوى دخل الأفراد والطبقات التي ينتمون إليها، حيث يذكر CASTELLS مثلاً أن الفضاء الحضري هو فضاء مهيكّل، أي أنه بدلالة أو تعبير آخر ليس منظماً بشكل عفوي أو ناتج عن محض الصدفة (CASTELLS, M. 1977 : 153)

وهذا يدل أن المدينة وبالرغم من لا تجانس مكوناتها وبالخصوص البشرية منها، إلا أن تقاسم المجال فيها يخضع للجانب الاقتصادي للأفراد أكثر من غيره، إذا هو يرتبط بمستوى الدخل والمكانة الاجتماعية المحلية التي يحققها هذا الدخل. هاتان السمتان حسب CASTELLS هما المسؤولتان عن رسم مورفولوجية المشهد الحضري.

وبما أن الوافدين الجدد إلى المدينة لا يمتلكون دخلاً كافياً لشراء مساكن مقبولة، فإنهم يعتمدون في تشييدهم للسكنات العشوائية على غزو أو تملك مجال حضري راجع للدولة والملكية العامة بصفة أكثر انتشاراً، من خلال أخذ مجموعة من الأراضي التي تعود ملكيتها إلى أملاك الدولة، ومن هنا فإنها منذ لحظتها التأسيسية الأولى تشيد على أساس اغتصاب ملكيات عمومية، وهو ما يؤثر بصورة سلبية على أملاك الدولة وعلى المدينة بشكل كلي.

وهذا ما يؤكد تعريف عبد القادر القصير للسكنات أو الأحياء العشوائية على أنها: عبارة عن تجمعات سكنية نمت وتوسعت بوضع اليد على أراضي الغير في داخل المدن وغالباً أطرافها، وهي تبدو وبشكل كل مترابطة من الأكواخ أو المساكن المؤقتة المبنية من المهملات على أراضي خالية من الخدمات كالماء، الكهرباء والمجاري المائية كما تفتقر إلى الخدمات الاجتماعية والصحية وتسكنها أفقر الطبقات الاجتماعية. (القصير، عبد القادر. ١٩٩٣: ٠٩)

ومن ناحية أخرى، استناداً على تعريف جاد محمود أن السكنات العشوائية هي: مناطق داخل المدن الكبرى وأحياناً بأطرافها، تتميز بانحطاط مستوى النازحين من الناحية الطبيعية، وتتميز هذه الأحياء بالشوارع الضيقة غير المخططة وغير المهياة والمنازل القديمة القابلة للسقوط، وتكتظ بعدد يفوق طاقتها من السكان، ولا تتمتع حتى بقسط ضئيل من الوسائل الحديثة. (جاد، محمود. ١٩٩٣: ٢٦) يمكن القول أن هذه السكنات تؤثر بصفة سلبية على الصورة المورفولوجية والجمالية للفضاء الحضري، وهو ما له انعكاسات أخرى مرتبطة بعدة قطاعات، وفي مقدمتها قطاع السياحة.

هذا ويرى عدد من الباحثين في أوساط مدرسة شيكاغو أبرزهم ويرث، أن العيش في المدينة يمثل شكلا من أشكال الوجود الاجتماعي الذي لا يقتصر على توزيع الجماعات في أماكن إقامتها، أو عملها، أو مصالحها الاقتصادية. فالمدينة في جوهرها، تمثل مركزا للسيطرة الاقتصادية والسياسية والثقافية، ومحورا تدور حوله جماعات وأنشطة متنوعة دون أن ترتبط فيما بينها بصلات أو علاقات شخصية أو اجتماعية حميمة. وقد تتكون مثل هذه العلاقات في أوساط بعض الجماعات الإثنية أو المهاجرة، غير أنها سرعان ما تبدأ بالتفكك والاندثار مع تزايد الكثافة والتعقيد في حياة المدينة. (غدنز، أنتوني. ٢٠٠٥: ٦٠٠) وهو ما يؤثر بدرجة ملحوظة على الأفراد المنتمين إلى المناطق العشوائية دون غيرهم، من جميع النواحي الحياتية، إلى درجة الوصم.

ونظرا للواقع الضاغظ الذي يعايشه سكان المناطق العشوائية، ووصمها بالأماكن الساخنة داخل النسيج الحضري وانتشار الجريمة والمجرمين فيها، فإنها تصبح بمثابة تهديد للمنتمين للمناطق الحضرية المحاذية لها، خصوصا إذا تم الأخذ بآراء النظريات الساعية لدراسة وتفسير العلاقة بين الجريمة والسكنات العشوائية في المدينة.

إذ ترى المدرسة الوظيفية أن ظاهرة الجريمة والانحراف ناجمة عن التوترات وجوانب الخلل الهيكلية والافتقار إلى آليات التنظيم والضبط الأخلاقي في المجتمع. فإذا لم تتوازن وتتقابل تطلعات الأفراد والجماعات مع ما يقدمه المجتمع من مكافآت أو حوافز ثوابية فإن الشقة أو الفجوة بين الرغبة وتحقيقها قد يدفع بعض أفراد المجتمع إلى الانحراف. (غدنز، أنتوني. ٢٠٠٥: ٢٨٣)

حيث تساهم هذه الفجوة في إنتاج ما يعرف لدى دوركايم مثلا باللامعيارية أو الأنوميا التي تولد لدى المنتمين للمناطق العشوائية بالضيق، وعدم القدرة على التأقلم مع متطلبات العيش الكريم من ناحية، والوصم الذي يلتصق بهم منذ ولادتهم من ناحية أخرى، وهو ما ينتج لديهم توجهات عدوانية نحو الذات والآخر متجسدا في المجتمع ككل.

وقد تبنى ميرتون مفهوم الأنوميا وعدل فيه ليصبح في رأيه تعبيراً عن الضغوط التي تفرض على سلوك الفرد عندما تتعارض المعايير المتعارف عليها مع الواقع الاجتماعي. ففي المجتمع الأمريكي- وفي المجتمعات الصناعية الخرى إلى حد ما- تؤكد القيم السائدة على النجاح المادي وعلى تحقيقه من خلال الانضباط والعمل الشاق. وعلى هذا الأساس، فغن من يعملون بجد هم الذين سينجحون مهما كانت البدايات التي انطلقوا منها. وهذه الفكرة ليست صحيحة أو سليمة في واقع الأمر لأن أكثرية المستضعفين لا يتمتعون إلا بفرص قليلة ومحدودة للتقدم، أو قد لا يتمتعون بها على الإطلاق. غير أن من لا ينجحون يجدون أنفسهم عرضة للإدانة الاجتماعية بسبب عجزهم الظاهري عن تحقيق التقدم المادي. وفي مثل هذا الوضع، يجد البعض أنفسهم مرغمين على التقدم إلى الأمام سواء كانت وسائلهم شرعية أو غير شرعية. وفي هذه الحالة يكون الانحراف، في رأي ميرتون، نتيجة من نتائج اللامساواة الاقتصادية وانعدام تكافؤ الفرص. (غدنز، أنتوني. ٢٠٠٥: ٢٨٤) وهو ما يعبر بطريقة ملحوظة عن واقع الأفراد المنتمين للأحياء العشوائية.

وانطلاقا مما سبق، يمكن القول أن عددا معتبرا من الفاعلين الاجتماعيين المتجهين نحو الانحراف والجريمة والمتاجرة في المخدرات، إنما يقومون بذلك نتيجة للامساواة الاجتماعية المنتشرة في المدينة،

إضافة إلى الظروف الصعبة لتحقيق العيش الكريم فيها. كما أن وصم كل من ينتمي إليها بالمجرم والمنحرف يؤثر بشكل ملحوظ على مساره الحياتي، وعلى طريقة تفاعله مع بقية الفئات الأخرى في المجتمع.

٥- النتائج:

اعتمادا على ما سبق التطرق له في البحث، يمكن إيجاز النتائج في النقاط التالية:

- عدم توفر السكنات العشوائية على أبسط شروط وضروريات الحياة الكريمة لسكانتها مقارنة بغيرهم من الفاعلين الاجتماعيين المنتمين للمناطق السكنية الحضرية المحاذية لها.
- تؤثر الشروط المؤطرة للواقع اليومي المعيش للفاعلين الاجتماعيين داخل السكنات العشوائية عليهم على نطاق واسع، يشمل كافة مجالات حياتهم، وبالأخص منها ما ارتبط بالجوانب التالية:
 ١. الصعيد الصحي والبيئي.
 ٢. الصعيد التربوي والتعليمي.
 ٣. الصعيد الاقتصادي.
 ٤. الصعيد النفسي والاجتماعي من حيث الوصم.
 ٥. الصعيد الأخلاقي وربطهم بالجريمة والانحراف.
- انعكاس التأثيرات السلبية للسكنات العشوائية لا يقتصر على ساكنتها فقط بل إنه يتجاوز ذلك إلى الفضاء الحضري المدني بصفة عامة، والمجتمع ككل.
- تأثير السكنات العشوائية على مورفولوجية المدينة وشكلها الجمالي، مما له انعكاسات سلبية على العديد من القطاعات وفي مقدمتها السياحة.

٦- خاتمة:

بالرغم من حساسية وتعقد موضوع السكنات العشوائية والتجمعات الفوضوية أو الهشة داخل النسيج العمراني الحضري، إلا أنه حظي باهتمام العديد من التخصصات والبحوث الأكاديمية، الساعية لإيجاد مقاربات نظرية ممكنة من تفسير وفهم هذه الظاهرة وما ينتج عنها من تأثيرات على الأفراد والمجتمع ككل.

وتتجلى أهمية هذا المجال البحثية في محاولة رصد ما يتعلق بالسكنات العشوائية من أجل التعامل مع هذه الظاهرة بطريقة عقلانية ممنهجة، نابعة عن فهم كل جوانبها، بهدف الحد منها، وإعادة دمجها بطريقة لائقة في النسيج المعماري الحضري، إضافة إلى إعادة تشييد علاقات تفاعلية اجتماعية مع المنتمين إليها، علاقات مبنية على أساس الإنسانية والكفاءة،

بعيدا عن كل دلالات الوصم وما ينتج عنها من عنف رمزي لدى ساكنة المناطق العشوائية، والذي يتحول حسب ما هو محتمل ومتوقع بدرجات كبيرة إلى سلوكيات عدوانية تهدد سلامة الأفراد والمجتمع ككل.

المراجع:

- الخراشة، عاطف، علي (٢٠١٠) التخطيط العمراني والبيئي، ط ٠١، بيروت، لبنان: مكتبة المجتمع العربي.
- الريدواوي، قاسم (٢٠١٢) مجلة جامعة دمشق، العدد الأول.
- القصير، عبد القادر (١٩٩٣) أحياء الصفيح، بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.
- بوجمعة، خلف الله (٢٠٠٥) العمران والمدينة، دون طبعة: دار الهدى للطباعة والنشر.
- حلواني، أحمد . المدينة ومجال تطوير فضاءاتها الحياتية، مجلة الباحث الاجتماعي: منشورات جامعة باتنة.
- جاد، محمود (١٩٩٣) التضخم الاجتماعي في البلدان النامية، ط ٠١، القاهرة: دار العالم الثالث.
- عاطف، محمد (١٩٨٣) علم الاجتماع الحضري: مدخل نظري، بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.
- غدنز، أنتوني (٢٠٠٥) علم الاجتماع، ت: فايز الصياغ، ط ٠١، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- مزهود، الصادق (١٩٩٥) أزمة السكن في ضوء المجال الحضري، الجزائر: دار النور.
- BENATIA, Farouk (1980) Agrégat ou cité, Algérie : S.N.E.S
- CASTELLS, M (1977) La question urbaine, Paris, France : Maspero.
- FRIEDMAN, Y (1978) L'architecture de survie, Paris : Casterman.
- GRANOTIER, M (1980) La planète des bidonvilles : Perspectives de l'explosion urbaine dans le tiers monde, Paris : Seuil.
- ROCHEFORT, M (1988) Problèmes généraux de la production du logement des pauvres, Revue : Tiers Monde, N°116, Octobre/ Décembre. P.P 1045- 1054.